المثل الشعبي بدولتي الإمارات والمملكة المغربية وترسيخ القيم المشتركة: من المظاهر اللغوية والدلالية إلى التقاطعات الثقافية.

بنعطيبة، عبد الكريم

inspectarab.tinghir@gmail.com

دكتوراه / أستاذ مشارك

مقدمة

تعدُّ الأمثال الشعبية خزانًا ثقافيًّا مهمًا، يشي بطبيعة تفكير كل شعب، كما تقدم دراسة الأمثال صورة عن المجتمع الذي أنتجها، وعن طبيعة العلاقات التي تربط بين أفراده، كما تكشف عن القيم التي تسوده، وتنتشر فيه، كما أن دراستها تتيح للباحثين معالجة العديد من الظواهر النفسية والأنثربولوجية، والغوص في جزئيات الممارسات اليومية لشعب من الشعوب.

إن الأمثال ليست مجرد جمل قصيرة مُسَجَّعة، قيلت في مناسبات مختلفة، وفي سياقات معينة، بل إنها تتجاوز هذا الدور إلى دور تقويمي وتوجيهي في الكثير من الأحيان، ولا يخلو إرث حضاري لأمة من الأمم منها، كما أن جميع الآداب العالمية أشارت إلى دور الأمثال في توريث الثقافة -الشفهية خاصة- لذلك، فإن دراسة الأمثال لقيت اهتمامًا كبيرًا، وأصبحت مدونات الأمثال متونًا تدرس وتحلل، وتطبق عليها المناهج، بمختلف توجهاتها ومشاربها، وانكب الباحثون عليها باختلاف توجهاتهم الفكرية، ومرجعياتهم العلمية.

ونظرًا لهذه الأهمية التي يضطلع بها المثل، فإن هذه الدراسة ستتناول جانبًا من الأمثال الشعبية لدى الشعبين؛ الإماراتي والمغربي، وذلك لمعالجة إشكالية تتمحور حول دور هذه الأمثال في ترسيخ القيم المشتركة بين شعب الدولتين الإسلاميتين العربيتين. ولتحقيق هذه الغاية، فإننا سنعتمد منهجية تحليلية تعتمد الانتقال من المظاهر اللغوية والدلالية إلى التقاطعات الثقافية، للوصول إلى النسق الذي يحكم التفكير الشعبي الذي أنتج هذه الأمثال. أما المتن المستخدم في هذه الدراسة، فإنه على سبيل

التمثيل لا الحصر، عبارة عن أمثال متقاربة من حيث الألفاظ والدلالات.

١) القناعة والتدرج في طلب الأرزاق

∑ من بغاه كله خلاه كله

يدعو المثل كما هو واضح إلى القناعة في طلب الأشياء، وإلى التدبر في نتيجة الطمع الزائد؛ ذلك أن الجشع يؤدي بصاحبه إلى فقدان كل شيء، فالأهداف التي نرمي إلى تحقيقها لا بد وأن نتدرج في طلبها، وإلا لن تكون النتيجة طيبة. ويقابل هذا المثل الإماراتي مثل مغربي يقول:

اللي بغاها كلها خلاها كلها

ويلاحظ القارئ ما بين هذين المثلين من تجانس لفظي وإيقاعي مع اختلاف بسيط في طريقة النطق، وهي جعل الهدف مذكرًا في المثل الإماراتي، وذلك لأن المضمر هنا دال على كلمة «شيء»، أما في المغرب فالمضمر هو عبارة «شي حاجة» أي «الحاجة». والجميل في المثلين هو اعتمادهما على ذلك التقابل الصوتي الذي يعضده التقسيم الدلالي المعتمد على العلاقة الاقتضائية؛ فالمثل هو عبارة عن خطاب حجاجي يحاول من خلاله ضارب المثل إقامة الحجة على دعواه، المتمثلة في الحث على التريث في طلب الأشياء، والتدرج في السعي إليها وتحصيلها، فالحجة «اللي بغاه كله» يقتضي -بالضرورة- نتيجة وهي «خلاه كله»، والعكس صحيح، فتصبح العلاقة ضربًا من التلازم؛ فضارب المثل «بتوظيفه هذا الصنف من العلاقات يعمد إلى الاجتهاد في إضفاء نوع من الحتمية على العلاقة بين النتيجة والحجة، فيُحكم الترابط بينهما بشكل يوحي بأن الأولى تقتضي الثانية، والثانية تستدعي الأولى ضرورة حتى وإن لم يكن الأمر كذلك، وكانت الصلة في حقيقتها ضربًا من التلازم «المصنوع» والاقتضاء «المتكلف» المفروض»1 إن هذا التعارض بين الإرادة والواقع هو ما يقود إلى ترسيخ القيمة المشتركة بين الثقافتين الإسلاميتين العربيتين.

2) الأرزاق عطايا الله لعباده

كما هو معلوم فغالبية الأمثال، سواء أكانت عربية، أم أجنبية؛ تتأسس في الأصل على حكايات، والأصل فيها أنها قيلت في مناسبات مختلفة، لم يكن الغرض منها أن تصبح أمثالًا سائرة، فصاحبها

ينطق بها فيرسلها مثلًا من حيث لا يدري. وحتى الأمثال الشعبية تركن إلى حكايات شعبية، بعضها حقيقي، وبعضها الآخر خرافي من نسج خيال الناس، وبعضها بدأ حقيقيًّا فزيد فيه حتى صارت حكاياته أسطورية، والمثل الذي سقناه الآن ترافقه حكاية شعبية2 تتمحور أحداثها حول رب أسرة فقير، لم يجد يومًا ما يسد به رمق أطفاله وزوجه، فلم يكن أمامه إلا اللجوء إلى البحر قصد صيد بعض الأسماك التي تملأ بطون أطفاله الذين يعانون الفاقة والجوع، ولم يكن يملك من عدة الصيد غير صنارة بسيطة وخيوط الصيد التي يسميها المغاربة «السبيب»، فلما رمى صنارته، وطال انتظاره، أحس بأن هناك شيئًا ثقيلًا علق بصنارته، فسحب صيده بجهد ومشقة، فإذا به يجد أن ما علق بها هو صندوق كبير مقفل، ففتحه ليجده مملوءًا بالجواهر الغالية. قرر الرجل أن يأخذ بعض الجواهر لإعالة أبنائه، ويترك البقية في الصندوق، ويعيده إلى جوف البحر بعد ربطه بسلسلة متينة كي لا يضيع، وبعد مدة عاد إلى الصندوق يبغي منه حاجته، فقام بسحب السلسلة، فكانت صدمته بأن لم يجد الصندوق مربوطًا في طرف السلسلة فقال:

ملِي تجِي تجِي غ بِصنارة، وملِي تمشي تقطع السلاسل

فصارت قولته هاته مثلًا مفاده، أن الأرزاق إذا أرادت أن تأتيك، فهي تأتيك من حيث لا تدري، ولأبسط الأسباب، أما إذا لم تكون مقدرة لك فإنها لن تأتيك. والصنارة هنا هي كناية عن بساطة الأسباب. وهذا المعنى هو نفسه الذي يتضمنه المثل الإماراتي القائل:

يوم أقبلت يات بشعره تنقاد ويوم ادبرت حتى السلاسل قطعت.

ولا شك في أن الدلالة التي يحملها المثلان هي نفسها، رغم تقديمها بألفاظ مختلفة، وذلك لسبب سنوضحه الآن من خلال الوقوف عند طبيعة المجتمع الذي يتداول هذين المثلين. إن الصيغة المغربية للمثل تنتشر في بعض دول شمال إفريقيا، وبالضبط المغرب، وتونس، والجزائر، والقاسم المشترك بين هذه الدول أنها جاءت مواجهة للبحر الأبيض المتوسط، ومن المعروف أن الإنسان ابن بيئته، وهذا التأثير الجغرافي حاضر في اللغة المستعملة، وفي طبيعة المادة التي ينهل منها المثل كلماته، فالصنارة أو «السبيب» هي لوازم الصيد، وهي حرفة منتشرة في المجتمعات البحرية.

وعلى الرغم من كون دولة الإمارات أيضًا، دولة مطلة على البحر، فإن المادة التي نهل منها المثل الإماراتي مختلفة تمامًا عن دول المغرب العربي؛ ذلك أن المواطن الإماراتي، يرتبط ارتباطًا بالصحراء، ومن هنا يأتي تأثير هذه البيئة الصحراوية على المثل نفسه، من خلال استحضار «الفرس» أو «الناقة» في القالب الاستعاري: «يوم جات بشعرة تنقاد» فجعل المتكلم الأرزاق بمثابة الذلول3، وهي الناقة أو الفرس التي تسهل قيادتها لخضوعها.

لا تخطئ عين التناظر الحاصل بين المثلين من ناحية الصيغ اللغوية المستعملة؛ فالمثل المغربي استعمل فعل «جات» أي «جاءت» أما المثل الإماراتي فقد استعمل فعل «أقبلت»، كذلك الشأن بالنسبة، للتناظر بين الفعلين «تمشي» وهو ما يرادف الفعل ذهبت باللغة العربية، وذلك الأمر بالنسبة للفعل «أدبرت». وهذا التناظر مبني بالأساس على طباق بين فعلي «جات» و«مشات» وبين «أقبلت» و«أدبرت»، ويضطلع هذا الطباق بمهمة أساسية تتمثل في «كشف الضد من خلال ضده، مما يؤدي إلى إيضاح المعنى وتقويته عن طريق المقارنة بين الضدين ومعرفة أحدهما بمعرفة الآخر»4 .

ينهل المثل من القيم الإسلامية المشتركة بين الشعبين الشقيقين، والمتمثلة أساسًا في الكتاب والسنة، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد أكد على أن الأرزاق هي عطاياه سبحانه إلى عباده، وبأنه هو الذي يرزق الناس من حيث لا يحتسبون مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ويقدر﴾5

٣) الكذب انتقاص من مروءة الإنسان

يعتبر الكذب من القيم السلبية التي تنفر منها النفوس، وتأنف منها السرائر النقية، وقد دعا الإسلام إلى نبذ هذه العادة الخبيثة واستئصال جذورها من المجتمع الإسلامي، وقد حذر الله تعالى في كتابه الحكيم من هذه الآفة في مناسبات كثيرة، واعتبر الكذب إخلالًا بالإيمان، وذلك في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾6، ومن هذا المنطلق، فإننا يجب أن نتجنب الكذب، بل يجب أن نتبين صحة ما يأتي به كل شخص ثبت في حقه الكذب، أو أتانا بخبر يثير في النفس الشك والريبة، حتى لا نقع في المحظور، ونظلم الناس، أو نقع في المشكلات مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾7 ويتناص المثل الإماراتي القائل: اتبع الكذاب لبيت أهله، مع الآية السابقة، ذلك أن قائله

استعمل الكناية، للتدليل على ضرورة التثبت من كل ما يقوله الكاذب، وذلك من خلال تتبع كلامه، ومصادر أخباره وأقواله، قبل أن يتم التصديق عليها، وقد ضمنت الكناية الاتجاهية8 كثافة الدلالة الدينية، والوصول إلى الحقيقة يتطلب تتبعها إلى أصلها، كما أن الإنسان ينتهي به المطاف إلى بيت أهله بعد كثرة تجواله.

يتقاطع المثل الإماراتي السابق مع مثل مغربي يقول: «تبع الكذاب حتى لباب الدار»؛ وهذا التقاطع نتيجة الاشتراك الثقافي النابع من كون المجتمعين المغربي والإماراتي يمتحان من ثقافة عربية وإسلامية ضاربة في القدم، ومتجذرة في الذاكرة التراثية، ويظهر ذلك من خلال تماثل المعنى، على الرغم من التباين اللغوي، وطريقة النطق، واللكنة.

٤) التطفل بين الثقافة العالمة والموروث الشعبي

يعتبر التطفل من الظواهر الاجتماعية المنتشرة في المجتمعات باختلاف دياناتها، ولغاتها، وعاداتها؛ وقد عرَّف الأصمعي الطفيلي بأنه « الدَّاخِل على الْقَوْم من غير أَن يدعى مَأْخُوذ من الطِّفْل وَهُوَ إقبال اللَّيْل على النَّهَار بظلمته وَأَرَادُوا أَن أمره يظلم على الْقَوْم فَلَا يَدْرُونَ من دَعَاهُ وَلَا كَيفَ دخل عَلَيْهِم قَالَ وَقَوْلهمْ طفيلي مَنْسُوب إِلَى طفيل رجل بِالْكُوفَةِ من بني غطفان وَكَانَ يَأْتِي الولائم من غير أَن يدعى إِلَيْهَا وَكَانَ يُقَال لَهُ طفيل الأعراس والعرائس... كَانَ رجل من بني هِلَال يُقَال لَهُ طفيل ابْن زلال إِذا سمع بِقوم عِنْدهم دَعْوَة أَتَاهُم فَأكل طعامهم فَسمى كل من فعل ذَلِك بِهِ «9 وقد روى البخاري ومسلم عن أبي مسعود قال: «جاء رجل من الأنصار يكنى أبا شعيب، فقال لغلام له قصاب: اجعل لي طعامًا يكفي خمسة، فإني أريد أن أدعو النبي صلى الله عليه وسلم خامس خمسة، فإني قد عرفت في وجهه الجوع، فدعاهم، فجاء معهم رجل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن هذا قد تبعنا، فإن شئت أن تأذن له فأذن له، وإن شئت أن يَرجع رَجَع. فقال: لا، بل قد أَذِنْتُ له.»01

ولعل المتأمل للنص السابق يرى أن الثقافة العربية انتبهت منذ القدم إلى أن هناك صنفًا من الناس يبادر إلى دعوة نفسه، وهذه عادة يأنف منها العربي الأصيل، وقد عبر التفكير الجمعي المشترك بين المجتمعين الإماراتي والمغربي عن ذلك بمثلين متقاربين هما؛ على التوالي:

- اللي يروح بليا عزيمة يرقد بليا فراش
- اللي مشى بلا عراضة يبقا بلا فراش

نلاحظ ما بين المثلين من تماثل قيمي، وتقارب لغوي، عن طريق استعمال المترادفات الآتية:

يروح / مشى ⟺ يذهب

وعزيمة / العراضة ⟺ الدعوة

كما يشترك المثلان في الكناية التي قامت بتأثيث فضاء المثل، وجعلته أكثر إقناعًا، والمتضمنة في عبارة «بلا فراش / بليا فراش»؛ والفراش كناية عن حسن الضيافة، وحرارة الاستقبال، فمن البديهي ألا يجد المتطفل من يستقبله أو يرحب به. فهو «يبقى» من غير فراش، أي يجلس على الأرض ويجعلها مكان اضطجاعه.

٥) لكل جديد لذة

يسعى الإنسان دائمًا إلى تحصيل الأشياء الجديدة، ويفرح بها أيما فرح، وذلك نتيجة رغبته الحثيثة في التجديد وعيش تجارب لم يسبق له أن عاشها، وكل جديد يقابل بالضرورة شيئًا قديمًا متهالكًا متلاشيًا. وفي تصوره، أن هذا السعي نحو الجديد يحقق إشباعًا للرغبات النفسية، وقد يكون هذا الجديد شيئًا ماديًا؛ كالملابس، أو الكتب، أو الأجهزة الإلكترونية...وقد يكون أشخاصًا؛ كالأصدقاء والمعارف، وقد يكون شيئًا معنويًا فقد «زعموا أن الحطيئة لما حضره الموت اكتنفه أهله وبنو عمه فقالوا له: يا حطيء أوصِ، قال: فبم وما أوصي؟ مالي بين بني، فأرسلها مثلاً، فقالوا له: قد علمنا أن مالك بين بنيك فأوص، قال: ويل الشعر من رواية الشعر، فأرسلها مثلًا، قالوا له أوص، قال أخبروا أهل ضابيء بن الحارث أنه

كان شاعرًا حيث يقول:

لكل جديد لذة غير أنني ... وجدت جديد الموت غير لذيذ

وانشد مثل هذا البيت:

ما لجديد الموت يا بشر لذة ... وكل جديد تستلذ طرائقه

ثم مات.»١١

وفي هذا الإطار يأتي المثلان الإماراتي والمغربي اللذان يقولان:

- **احفظ جديمك.. جديدك ما يدوم**
- **الجديد ليه جدة...والبالي لا تفرط فيه**

لا غرو في أن الدلالة التي يحملها المثلان واحدة، وذلك لأنهما دعوة صريحة إلى التمسك بكل شيء عتيق وقديم، لأن الأشياء لا تفقد قيمتها بمرور الزمن، بل تحافظ على هذه القيمة، كما أنها قد تصبح أثمن، وهنا حينما نستعمل لفظ «أثمن» فلا نرمي به إلى المعنى الحرفي المرتبط بالمال، ولكننا نقصد به القيمة المعنوية.

أما من الناحية اللغوية فالملاحظ في المثل الإماراتي، استعماله لصيغة الأمر البلاغي، الذي ينبني على استلزام حواري، ليؤسس نصيحة تعتمد التقابل الدلالي من خلال الطباق بين كلمتي "قديمك" و"جديدك"، ومنه تتأسس علاقة تضاد جديدة، يفرضها السياق التداولي للمثل، وهي علاقة يستنتجها المتلقي ليبني بها واقعًا جديدًا، ونتيجة ضمنية يتغيا مرسل المثل إبلاغها، ويبتغي ضارب المثل إقناع المتلقي بها، وهي أن الجديد لا يدوم، وأنه سيتحول بدوره إلى قديم في يوم من الأيام، ونمثل هذه العلاقة في الخطاطة الآتية:

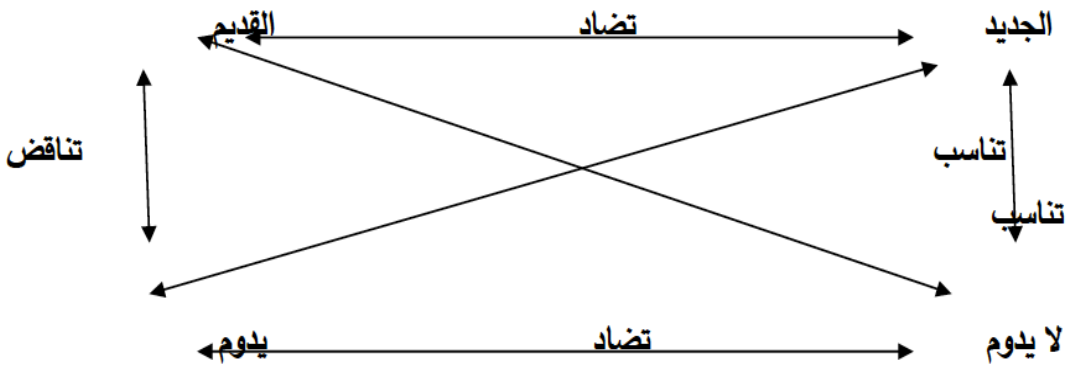

إذا كان المثل الإماراتي قد صدَّر المثل بأسلوب إنشائي هو الأمر بلاغي، ثم أعقبه بأسلوب خبري منفي، فإن المثل المغربي-الذي يحمل الدلالة نفسها- قد عكس الأمر؛ إذ جعل صَدْر المثل أسلوبًا خبريًّا مثبتًا: «الجديد ليه جَدَّة» ومعناه أن لكل جديد جِدَّةٌ، أما عجز المثل فقد جاء في صورة أسلوب إنشائي، هو النهي البلاغي «والبالي لا تفرط فيه»، الذي يفيد هنا النصح والتوجيه؛ «فالأساليب اللغوية بوصفها موجهات تعبيرية، تعمل على توجيه السامع نحو أمر معين، ومن بين هذه الموجهات نجد أسلوب النفي الذي يندرج ضمن الرد على إثبات فعلي أو محتمل حصوله من لدن الغير»21. وعلى الرغم من الاختلاف الذي يسم هذين المثلين من الناحية اللغوية، فإنهما اعتمدا على الترادف اللغوي، بين لفظي «القديم» و«البالي».

٦) أخذ الكل بجريرة الوتْر.

يُعرَف السمك بسرعة فساده إن تُرِكَ دون حفظ من الحرارة، فينشر رائحة نتنة تكرهها النفوس، وهذه الصورة المقرفة لهذه الرائحة النتنة تمت استعارتها في مثل يُضرَب في حالة وجود شخص سيئ الأخلاق رفقة جماعة من الناس يعرفون بدماثة الأخلاق، وحسن السيرة، لكنه يمكن أن «يعديهم» ويفسد أخلاقهم؛ يقول المثل الإماراتي:

السمكه الخايسة تخيس السمك كله.

ونشرح ألفاظ المثل على النحو الآتي؛ فـ«ـالخايسة» تعني المتعفنة النتنة الرائحة، أما لفظ «تخيِّس» فهي تدل على نقل الرائحة النتنة إلى الأشياء المجاورة، التي تلتصق فيها النتانة بفعل مجاورتها.

في حين يقول المثل المغربي:

حُوتَة واحدة كتْخَنَّزْ شْوَاري

ترادف كلمة «حوتة» كلمة «سمكة»، فالحوت في المغرب ليس له المعنى المعجمي المعروف، والمتمثل في أن الحوت هو ذلك المخلوق البحري الضخم الذي يجوب محيطات الأرض، بل إن المغاربة يطلقون كلمة «الحوت» في صيغة الجمع على كل الأسماك، أما «الشواري» فهو ما يطلق عليه البدو «الخرج»، وهو ما يوضع على ظهر الحمار أو البعير لنقل البضائع، ويكون على هيئة قفتين متصلتين.

يعتمد المثلان على الاستعارة التمثيلية، وهي أقوى وسائل الاقناع المتاحة في الأمثال- بوصفها خطابًا

كأي خطاب آخر- فالأسلوب الاستعاري أقدر الأساليب التعبيرية على إمداد الخطاب بقوة التفرّع والتكاثر، فهو أشدها توغلًا في العمل بالآليات التشبيهية التي هي عماد الاستدلال الطبيعي"31 ويمكن أن يضرب المثل في حالة أخذ الكل بجريرة الفرد، ونرجع في هذا السياق إلى قصة مقتل كليب وائل من لدن جسّاس بن مرة الشيباني، وهو ما عُرف في تاريخ العرب بحرب البسوس41، التي دامت أربعين سنة، فقد قامت الحرب بين قبيلتي بكر وتغلب بسبب شخص واحد هو جساس، وقُتل فيها أناس كثر بسبب بفعل قام به فرد واحد.

الإشاعة نار تشعل ما جاورها من الحطب

تعدُّ الشائعات من الظواهر المنتشرة في شتى المجتمعات، وهي ليست طارئة علينا في هذا العصر، بل تمتد أصولها إلى العصور القديمة، ولكنها تطورت وازدادت حدة مع انتشار استعمال وسائل الإعلام، ووسائل الاتصال والتواصل المختلفة، خاصة مع ما عرفه المجتمع من اتساع قاعدة مستعملي الهواتف الذكية، ومواقع التواصل الاجتماعي، وظهور ما يسمى بالصحافة الإلكترونية التي أضحى من الصعب السيطرة على الأخبار التي تنشرها، كما ساهم ظهور مفهوم «المواطن الصحفي»، إلى سرعة توليد الشائعات والعمل على نشرها.

يعرف ابن منظور الشائعة قائلًا: «شاع الخبر في الناس يشيع شيعًا وشيعانًا ومشاعًا وشيعوعة، فهو شائع: انتشر وافترق وذاع وظهر. وأشاعه هو وأشاع ذكر الشيء: أطاره وأظهره، وقولهم: هذا خبر شائع، وقد شاع في الناس، معناه قد اتصل بكل أحد، فاستوى علم الناس به، ولم يكن علمه عند بعضهم دون بعض»51. ويلتقي المعنى اللغوي بالمعنى المتداول لمفهوم «الشائعة» وهي ذيوع خبر غير موثق، وغير صحيح.

ولأن الشائعات تشكل خطرًا على الفرد والمجتمع، فقد سعت بعض الدول لمحاربتها، كالمملكة العربية السعودية التي أنشأت هيئة مُكافَحة الإشاعات، وهي مشروع مستقل تم إنشاؤه عام 2012م للتصدي للإشاعات والفِتن واحتِوائها لكي لا تُشكل أي ضرر على المُجتمع، وذلك بفضح ناشِري الأكاذيب التي تهدف إلى إثارة الرأي العام من خلال نشر الوعي وتوضيح الحقيقة بالمصادِر الرسمية.

ووعيًا منه بخطر الإشاعات، اجترح الإنسان العربي في الإمارات والمغرب المثلين الآتيين:

إذا طاح الجمل كثرت سكاكينه
إلى طاحت البقرة يكثرو الجناوى

يضرب المثلان عند تلقي خبر، يكون المتلقي فيه غير مصدق لما قيل، ومكذبًا له، ويضرب متى سمع هذا المتلقي أخبارًا عرف أنها لا تتوفر فيها شروط الحقيقة والصدق، خاصة إذا كان هذا الخبر سيئًا، وقيل عن شخص عُرف بغير ما قيل عنه.

من الناحية اللغوية يَستعملُ المثل لفظ "الجمل" للدلالة على الذي قيل عنه الخبر، أما الفعل "طاح" فهو يدل على أن هذا الشخص هو موضوع الخبر، وأنه هو الضحية التي تحاك عنها هذه الأقاويل، أما السكاكين فهي استعارة تصريحية، للدلالة على الشائعات المتداولة، أو عن حَمَلَةِ هذه الأخبار وناقليها. ويعيدنا استعمال لفظ "الجمل" إلى ما قلناه سابقًا عن تأثير البيئة التي يعيش فيها مُستعمل المثل.

لا يختلف المثل في صيغته المغربية عن نظيره في صيغته الإماراتية؛ ذلك أنه نفسه تقريبًا مع نوع من التوازي الدلالي عن طريق التناسب بين كلمتي؛ "الجمل" و"البقرة"، وهذا نتيجة البيئة كما أسلفنا، وكذا الترادف الحاصل بين كلمتي "سكاكين" و"الجناوى"؛ و"الجناوى" في القاموس المغربي جمع لكلمة "جنوي"، وهو السكين الكبير الحجم الذي يستعمل لذبح المواشي.

يتضح من خلال هذا المثل عمق التشابه الثقافي، بين الشعبين، لأنهما يتمسكان بالقيم الإسلامية نفسها، ويترسخان مبادئ الدين الإسلامي التي تدعو إلى محاسن الأخلاق، والخصال الحميدة، وتجنب الوقوع في المنهي عنه كالإشاعات، فقد "روى البخاري عن ابن عمر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «إن من أفرى الفرى أن يري عينيه ما لم تر»[61]. و«قوله صلى الله عليه وسلم: (إن من أفرى الفرى) أفرى: أي أعظم الكذبات، والفرى جمع فرية، قال ابن بطال: الفرية: الكذبة العظيمة التي يتعجب منها»[71].

٨) تمسك الإنسان بعاداته

إن تعود الإنسان على عادات، سواء أكانت تلك العادات جيدة أم كانت سيئة، فإنه يعسُر عليه أن يتركها فيما بعد، ولئن كان المثل الشعبي قد عبر عن ذلك، فإنه قدم صورة ساخرة، إذ يقال في الإمارات:

يموت الزمار ويده تلعب

فإن الزمار؛ أي ذلك الشخص الذي يعزف في الآلة الموسيقية المسماة مزمارا، تعود على معالجته بأصابعه في أثناء نفخه، فإن يده تلعب، وقد سخر ضارب المثل من المتمسك بعاداته، والذي لا يستطيع التخلي عنها تحت أي ظرف كان. ولإضفاء شيء من المبالغة المشفوعة بالسخرية تم استعمال لفظ «الموت»؛ لأن الميت لا يحرك ساكنًا بعد أن تفارق الروح جسده، فيصبح فاقدًا الحركة، لكن في حالتنا هاته نرى أن صاحب المزمار لا يمكنه أن يترك شيئًا شب عليه.

وفي المقابل نجد المثل المغربي الذي يحمل الدلالة نفسها، يقول:

الرقاصة ما تنسى هزت الكتاف

فمن الناحية اللغوية «هزت» تعني تحريك الأكتاف والجسد قص الرقص، و«الكتاف» هي الأكتاف.

تكشف لنا مقابلة المثلين بأن نقدًا يطال مصدر المادة الساخرة فيهما، وهي مجال الرقص والموسيقى مما يؤكد تقارب الثقافة الشفهية للشعبين.

٦) التواكل على الغير

يعتبر التواكل من الصفات غير المحمودة، والتي نهى عنها الإسلام؛ والتواكل هو الاعتماد على الغير من المخلوقات والأشخاص، وهو خلق مذموم كما أسلفنا، لأن المطلوب من الإنسان أن يسعى لكسب معيشته. حتى يعف نفسه وأهله عن التعرض لسؤال الناس وإبداء الحاجة لهم، فقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:» كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن متوكلون، فيحجون إلى مكة ويسألون الناس، فأنزل الله عز وجل: وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴿البقرة: 197﴾ »81. وينافي التوكل الشرعي الذي هو الاعتماد على الله والثقة به مع الأخذ بالأسباب، روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقي ناسًا من اليمن «فقال: ما أنتم؟ فقالوا: متوكلون. فقال: كذبتم، أنتم متكلون، إنما المتوكل رجل ألقى حبة في الأرض وتوكل على الله عز وجل». ولكنه مع ذلك لا يمنع العبد من الرزق الذي قد كتبه الله تعالى له. واتصالًا بهذا الموضوع، فقد تشبعت القيم المشتركة بين الشعبين مضامين هذه النصوص القرآنية، وصاغتها في مثلين متقاربين يدلان على المعنى ذاته، وهو ضرورة الابتعاد عن التواكل:

- **يكدها الريح وياكلها المستريح**
- **جري يا التاعس في سعد الناعس**

تقدم صيغة المثل الإماراتي كلمات من قبيل «يكدها»، وهو فعل يتضمن حركية تتلاءم والحركة التي تحدثها الريح، وذلك أن الريح مرتبطة بالخير، وقد ربط القرآن الرياح في الغالب بالرزق، والخير، كقوله تعالى: (وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)91. والملاحظ أن المثل يحيل إلى أن الغيريسعى في العمل، ويكد فيه ويتعب من أجل القيام بها، لكن النتيجة أن الذي يجني ثمار هذا الكد هو الشخص المستريح في بيته، وعلى هذا الأساس، فإن المثل ضمنيًّا يدعو إلى نبذ هذه العادة.

من جهة ثانية، فإن صيغة المثل، تتضمن سجعًا يجعل للمثل وقعًا على أذن المتلقي ويرسخ القيم المتضمنة فيه، فتماثل صدر المثل مع عجزه من الناحية الصوتية (يكدها/ ياكلها، الريح / المستريح)، والصيغ اللغوية المستعملة تقوي الطاقة الإقناعية لها المثل.

في السياق نفسه، وبالمعنى ذاته يأتي المثل المغربي بصيغة ساخرة، مخبرًا عن كد الشخص سيئ الحظ التعيس، ليستفيد في الأخير الشخص «الناعس»، والناعس في اللهجة المغربية يشار بها إلى الشخص النائم. كما يعزف المثل في صيغته المغربية على وتر المحسنات البديعية المتمثلة في تناغم الفواصل الصوتية بين صدر المثل وعجزه (التاعس / الناعس)، هذا السجع الذي اعتمد على الجناس غيرالتام باستبدال حرف «النون» بحرف «التاء»، والاحتفاظ ببقية الأحرف، داخل قالب صرفي هو اسم الفاعل.

خاتمة

نخلص في نهاية دراستنا إلى عدة استنتاجات نوردها على الشكل الآتي:

- تؤطر الثقافة الإسلامية التفكير الشعبي للشعبين معًا، مما ينعكس على الأمثال التي يتم إرسالها، وذلك عبر الدعوة إلى التمسك بالقيم الإسلامية التي دعا إليها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، والتي أكدها الرسول عليه الصلاة والسلام في سنته النبوية الشريفة؛ أقوالًا، وأفعالًا، وتقريرات، كنبذ الكذب والتواكل، والافتراء على الناس، وكالتمسك بالصدق، والإيمان بالله، وبالعمل الجاد، وغيرها من القيم الأخلاقية والدينية.

- وجود تقاطع ثقافي في طريقة التفكير، وكذلك طريقة التعبير، والصيغ التي وردت فيها الأمثال الشعبية الخاصة بالدولتين، والتي تعتمد على الصياغة نفسها للمثل العربي الفصيح عن طريق استخدام السجع، والفواصل الصوتية والموازنات.

- تقارب الأمثال من حيث الألفاظ، مع اختلافات طفيفة في نطق بعض الحروف، أو في استخدام كلمات مترادفة، أو متقاربة المعاني، وذلك تبعًا للبيئة التي يعيش فيها ضاربو المثل.

- الاعتماد على اللغة الساخرة في الأمثال، ضرب من الحجاج، وآلية من آليات الإقناع، التي تعمل على ترسيخ القيم المشتركة بين الشعبين، كما أنها نابعة من حس الفكاهة التي يمتاز بها الإنسان العربي، تلك السخرية الممزوجة بالجد، والمعبرة عنه أيضًا.

وبعد هذه الخلاصة نقدم بعض الأمثال المغربية مع تقديم ترجمة لها باللغة العربية الفصحى:

المثل المغربي	ترجمته	دلالته
الدجاجة غسلات رجليها نسات ماداز عليها	الدجاجة غسلت رجليها فنسيت ما مر عليها	يُضرب لمن مرت عليه محنة فنسيها، وهو في طور الوقوع فيها ثانية.
ماقدو الفيل زادوه فيلة	لم يكفه الفيل زادوه فيلة	الشخص وقع في مصيبة عظيمة، ثم تلتها مصيبة أعظم منها.

صياد النعام يلقاها يلقاها	صياد النعام سيصادف مصيره يوما لا بُدَّ من ذلك	من يطمع في الحصول على أمر مستحيل ويريد تحصيله بالحيلة سيقع في شر أعماله، وهو مثل له قصة: ذلك أن صيادا تعذر عليه صيد نعامة فتنكر على شكل أنثى النعام فقتله صياد آخر ظنا منه أنه نعامة.
المندبة كبيرة والميت فار	المأتم ضخم والميت فأر	يقال لمن عظموا أمرًا لا يستحق كل ذلك.
اللي قال العصيدة باردة، ادير يدو فيها	من قال إن العصيدة باردة فليضع فيها يده.	يضرب لمن عاب أمرًا وهو لم يجربه.
الطلاب يطلب ومرتو تصدق	المتسول يتسول، وزوجته تتصدق بما حصَّل.	يضرب لمن يشقى في أمر وهناك من يضيع له ما قام به.
دخلناهم يشربوا الرايب قالوا حقنا فالزرايب.	أدخلناهم ليشربوا الرائب، فقالوا لنا حق في الزرائب.	يضرب لمن أشرك معه شخصًا في مشروع فاستولى عليه.
اللَّهُمَّ بْخُوشَه وْتْونّس وَلاَ يَا قُوتَه وْتْهَوَّسْ	اللهم حشرة زاحفة ولكنها تؤنس أفضل من ياقوتة ولكنها تزعج	يضرب المثل لمن أراد أن يتزوج فعامل الجمال ليس مهمًا؛ فقد تكون الزوجة جميلة لكنها تقلق راحة بال بعلها، والعكس صحيح.
اللِّي كَيْعَمْلُه يَبْلِيسْ فْعَام، تْعْمله العْكُوزَة فْسَاعهْ	ما يفعله إبليس في سنة، تفعله العجوز في ساعة	دهاء النسوة العواجز

1 – سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، عالم الكتب الجديد، أربد– الأردن، ط2، 2011، ص335.

2 – رواية شفهية.

3 – ابن منظور، لسان العرب، جاء في مادة ذ.ل.ل:

والذل بالكسر : اللين وهو ضد الصعوبة. والذل والذل: ضد الصعوبة. ذل يذل ذلا وذلا ، فهو ذلول ، يكون في الإنسان والدابة؛ وأنشد ثعلب:

وما يك من عسرى ويسرى فإنني ذلول بحاج المعتفين أريب

علق ذلولا بالباء؛ لأنه في معنى رفيق ورءوف، والجمع ذلل وأذلة. ودابة ذلول ، الذكر والأنثى في ذلك سواء، وقد ذلله . الكسائي: فرس ذلول بين الذل، ورجل ذليل بين الذلة والذل، ودابة ذلول بينة الذل من دواب ذلل .

4 – كمال الزماني، حجاجية الأسلوب في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه، عالم الفكر الحديث، إربد–الأردن، الطبعة الأولى، 2009، ص420.

5 – سورة الإسراء، الآية 30.

6 – سورة النحل، الآية 105.

7 – سورة الحجرات، الآية 6.

8 – الكناية الاتجاهية مصطلح بلاغي استعرنا شقه الثاني من نظرية لايكوف وجونسون في كتابهما: الاستعارات التي نحيا بها، حيث تحدث الباحثان عن الاستعارة الاتجاهية orientational métaphors؛ وترتكز هذه الاستعارة على الاتجاهات الفيزيائية كفوق وتحت، وأمام وخلف.

9 – جمال الدين أبو الفرج الجوزي، كتاب الأذكياء. مكتبة الغزالي، د ت، د ط، ج 1، ص 177.

10 –يراجع الصحيحان.

11 – المفضل بن محمد الضبي، أمثال العرب. ت: إحسان عباس، دار الرافد العربي، بيروت–لبنان، ط1، 1981، ص141.

12 Ch.Perlman et tyteca (L.O). Traité de l'argumentation, 5emme édition, 1992 ,P208. –

13 – طه عبد الرحمان، اللسان والميزان، ص295.

14 – يراجع بهذا الصدد : جورجي زيدان، العرب قبل الإسلام، (القاهرة)، دار الهلال، 2006م،. وقد ذكر ابن الأثير تفصيل ذلك، الكامل في التاريخ، 1415هـ.

15 – ابن منظور، لسان العرب، مادة (ش.ي.ع)

16 – البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: 7043 .

17 – العسقلاني ابن حجر، فتح الباري، ج12، ص430 .

18 –البخاري، صحيح البخاري.

19 – سورة البقرة، الآية 164.